٢ ـ كوليرج

للكاتب الناقد ا. ى. لى. كيلركوج

بقلم الأستاذ يوسف عبد المسيح ثروت

وفى حزيران (يونيو) من سنة ١٧٩٤ زار كوليرج صديقه أرلن فى أكسفورد وتعرف هنالك بالشاعر (روبرت ساوذى) . وقد كان روبرت هذا شابا ناريا متحمسا فيه ميل شديد ونزعة قوية لاحتضان المبادئ العتيقة ومن هذه المبادئ نشأت فكرة (البانتيسو كراسية [1]) بتأييد من أصدقاء ساوذى ومساعدة من كوليرج . ويلخص كامبل هذه الفكرة فيما يلى : « اتفق اثنا عشر رجلا من المثقفين ثقافة جيدة وممن لهم أفكار حرة مع من يماثلهم من السيدات على الأبحار فى نيسان من هذا العام واضعين نصب أعينهم منطقة بديعة من مناطق أمريكا ، وكان المظنون أن عمل كل من هؤلاء الأشخاص لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات يوميا كان للقيام بأود (المستعمرة) . أما المنتج فهو ملك مشاع ، وكان المقرر أن تكون هنالك مكتبة عامرة ، وأوقات فراغ ملائمة ، لتخصيصها للدراسة والمناقشة وتربية الأطفال وفق خطة دقيقة معينة . كما أن واجب النساء كان يقتضى منهن التفرغ للاعتناء بالأطفال الرضع ، والقيام بأشغال لائقة أخرى . على أن ذلك يجب ألا ينسيهن تثقيف أذهانهن وإنماء مواهبهن المتنوعة بالتتبع والدراسة وبالتفهم والممارسة فى كل شأن من شؤون الحياة العامة والخاصة [2]) . أما الأمور الأخرى التى لم تقرر فى حينها فكان أهمها رباط الزوجية وهل فى الإمكان فصمه برغبة أحد الطرفين أو برغبة كليهما وكان من حق كل شخص أن يتمتع بكل حقوقه الدينية والسياسية إذا لم يكن فى ذلك اجتراء على الحقوق والقوانين المتفق عليها سابقا) وقد حسبوا أن أى شخص يدفع (١٢٥) جنيها وله مالهم من الآراء الحق فى تنفيذ هذا

(١) تعنى الكلمة المساواة وهى مذهب يدعو إلى المساواة فى الحقوق والواجبات والمشاعية فى الملكية ، المترجم

(٢) من كلام المترجم

إلى لغة القرآن حينما نجتمع بإخواننا المسلمين الأعاجم الذين أصابوا ولو قليلا من الثقافة القرآنية أو الثقافة العربية : فإنه لا ينفس الكرب عنا وعنهم ويجعلنا ننعم بالحديث معهم إلا لغة القرآن . ويظهر أن وسائل النشر والإذاعة والآلات والمواصلات وفرة دواعى الاجتماع والتلاق بيننا وبينهم فى البعثات والمؤتمرات

كل ذلك يمهد الطريق أمام استعمال اللغة الفصحى بيننا فتقوى فينا ملكة التكلم بها من حيث تضعف فى نفوسنا إلى حد محدود سليقية البذلة العامية

وإنما قلت إلى حد محدود : لأنه مادام هناك اختلاف وتباين فى عقول أبناء الأمة الواحدة وقابلياتهم ومعارفهم وتفاوت فى ملكاتهم وتربيتهم وثقافاتهم فلابد أن تبقى فيهم لهجة عامية عائشة بجانب اللغة الفصحى

على أن اللغة الفصحى مع الأسف مهما انتشرت وقام لها سوق فيما بيننا سوف تبقى عاطلة من حليتها ، مجردة من حركات إعرابها كما هى حالة لغة أهل (عكاء) فى اليمن على ما حكاه الشيخ عبد الرحمن الكواكبى للشيخ أحمد الإسكندرى . ولله الأمر من قبل ومن بعد

عبد القادر المغربى

المشروع) . وبينما كانت (البانتيسوكراسية) فى دور المخاض المؤلم ، طافت فكرة طارئة فى ذهن كوليرج فتركها هكذا وسار مشيا على قدميه فى مقاطعة ويلز

وفى اليوم الثالث عشر من (يوليو) وصل إلى (ريكسهام) وهنالك عثر على مارى إيفانز بينما كان يتمشى بالقرب من نافذة أحد الفنادق فلمحها وهى تهبط السلم إلى الشارع مع إحدى أخواتها . وقد علق على هذه المقابلة غير المتوقعة بقوله : (هجم على المرض فجأة وكاد الإغماء أن يوقع بى شر هزيمة ، ولكننى تمالكت روعى وتمكنت من التراجع بسرعة) . ويظهر أن الأختين شاهدتاه (لأنهما سارتا أربع أو خمس مرات بجانب النافذة المطلة على الشارع كأن القلق كان يحز فى قلبيهما) . ولكن اللقاء لم يتحقق ، وهو لو تحقق لأدى إلى المصالحة على أكبر احتمال

فر كوليرج إلى (برستول) ولحق بصديقه ساوذى هناك مع عدد من البانتيسوكراسيين ومنهم كانت عائلة تدعى عائلة (فركر) . وقد تزوج ساوذى (أديت فركر) بينما تزوج كوليرج (ساره فركر) كما يقع ذلك بصورة فجائية بنتيجة الصدمات التى تصيب العاطفة الهائجة (فتجعلها ترتمى فى أحضان أية امرأة يضعها القدر فى طريقها [٣]) . يقول كامبل (إن الزواج لم يعقد فى السماء وإنما قرر على الأرض وعلى يد ساوذى . إن السماء وحدها وليس أحباء كوليرج ، هى التى تعرف ما كان يحدث لو أنه اقترن بدوروثى وردزورث) ليس من حقنا أن نرجم بالغيب فى مثل هذه الأشياء ، وإن نحن حاولنا ذلك فلن نصيب إلا أنفسنا . أما إن التقاءه بها كان مؤخرا فهذا حق لا يمارى فيه أحد ، وكذلك كان الحال مع وليم وردزورث أخيها . وبعد أن مكثت عائلة كوليرج أمداً قصيرا فى (كاليفندن) وبرستول تخللتها سفرة قام بها كوليرج وزوجه لجمع الاشتراكات لمشروع جريدة باسم

(٣) من كلام المترجم

(المراقب) ارتحلت هذه العائلة مع وليدها إلى (نيذر ستاوى) فى (سومرشت) لتكون بجوار توماس بوول ، الصديق الوفى والخل المخلص . وإلى هنا قدم وردزورث مع أخته الجميلة فى تموز عام ١٧٩٧ ، وقد لحق بهما بعدئذ تشارلى لامب وصل الجميع فى ضيافة كوليرج « وقد خلدت هذه الزيارة فى قصيدة (تحت ظلال شجرة الليمون) وبعد ذلك رجع تشارلى إلى لندن بعد مكوثه معهم لمدة قصيرة جدا ، بينما أقام وردزورث وأخته فى (الفوكسدن) على مقربة ثلاثة أميال من دار كوليرج ، وذلك بسبب الرابطة السحرية التى ربطتهما بعنف وقوة بكل ما له علاقة بكوليرج . وأخيرا حدثت المعجزة . قد يكون من الحق أن نقول إن كوليرج لم يبلغ مبلغ الإعجاز فجاءة ، لأنه سبق له أن طبع مجلدا من الشعر طبعة ثانية بعد أن نفدت الطبعة الأولى ؛ ولكن هذا المجلد لم ينبئ بما سيقع . أما وردزورث فكان يستوحى آلهة الشعر — إن جاز لنا أن نطلق كلمة (الوحى) على ناظم قصيدة (المجاورين) — ولكن العجب سيأخذ منا مأخذا شديدا ، لأننا سنجد هذا الناظم بالذات ينظم بعد حول فقط قصيدته العصماء (كنيسة تنيترن) فما كان غير محتمل وقع ، وما كان أملا تحقق . وقد غدا الأخ والأخت والصديق روحا واحدا ، كما شهد بذلك كوليرج نفسه . وفى وسط روح المحبة والأخوة وتحت تأثير دوروثى بصورة خاصة ، التى كانت وحدها صامتة هادئة ، وقانعة بالتشجيع والنقد والإعجاب والإرشاد ، أقول : فى وسط هذا الجو السحرى الرائع وجد كوليرج ووردزورث نفسيهما شاعرين مفردين بنغمات جديدة فى فجر جديد . وفى الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر من اليوم الثالث عشر من تشرين الثانى شرع الأصدقاء الثلاثة يسيرون مشياً إلى (وجيت) فى طريقهم إلى الريف فى (اكسمر) وذلك لأداء ما بذمتهم من نفقات بواسطة بيع قصيدة ، عزم الاثنان على نظمها فى

الطريق ! . وقبل انقضاء ثمانية أميال من سفرتهم هذه، فشلت خطة النظم المشترك ، وأخذ كوليرج على عاتقه نظم القصيدة بمفرده ، واستمر العمل فى ذلك حتى شهر آذار التالى . تقول دوروثى معلقة على ذلك : (إنه فى الثالث والعشرين من ذلك الشهر تناول كوليرج طعامه معنا ، وكان فى جعبته قصيدته (النوتى القديم) كاملة تامة

وكان الليل بديعا والقمر بازغا ، وكنا نشعر كأن النجوم والكواكب متحلية بزينتها احتفالا منها بمولد الكوكب الجديد) . ومن الحق أن نقول إن قصيدة (النوتى القديم) تضطرنا إلى التأمل والتفكير فى أحقية ما كان يدعو إليه رجال العصور الوسيطة من أن هناك انسجاما بين الشعر والسحر، وان (فرجيل) كان ساحرا . وكما قلنا قبل الآن يمكننا أن نفهم بمجهود يسير أن أغانى باولز — على ما هى عليه من شحوب ووهن وذبول — كانت تعنى فى فجر عام ١٧٩٠ غير ما تعنيه الآن . ولكن يمكن أن نتجاهل ظروف ولادتها ووقت بزوغها وما يتعلق بها من نظريات ، كما يمكن أن نتجاهل وردزورث ومقدماته وما كان بينه وبين كوليرج من مشادات ومنازعات . إلا أننا مع كل ذلك وحتى بعد مرور مائة سنة ، مجبرون على الاعتراف بأن قصيدة (النوتى القديم) هى تجربة الفن الكبرى ، والكوكب الذى اصطاده كوليرج وجلبه بيديه إلى (الفوكسدن) وأراه لدوروثى ووليم وردزورث . لأنه ليس فى مجالى الشعر الإنجليزى بأجمه — وحتى لدى شكسبير — ما يجارى فى عبقرية لغتنا الغنائية تلك النغمات العلوية التى أنشدها كوليرج فى هذه القصيدة . . فوسيقاها جذابة سهلة ، جميلة فى تصويرها وخيالها وإيقاعها ، وكلماتها تجرى مجرى السلسبيل العذب فى رقتها وخفتها ولطافتها . وقد تضم القصيدة بعض الكلمات الضخمة الثقيلة إلا أنها تقوم بدورها وتمضى بيسر وجمال وبراعة؛ فشكسبير — على علو كعبه وسمو منزلته — لم يتمكن من الإتيان بما أتى به كوليرج فى هذه القصيدة اللهم إلا بعض النتف المتناثرة هنا وهناك ... إن فى هذه القصيدة لحن الملائكة وصوتهم العذب المرتل ، وكأنهم فى إنشادهم هذا جوقة سماوية تغنى ما يحلو لها من الأنغام الدينية أمام بوابة الفردوس فى غبش الفجر

وعلى الرغم من أن النقاد يعترفون بسحر هذه القصيدة وقوة تأثيرها وجمالها الفنى ، إلا أنهم مع ذلك يفهون هذا الاعتراف ، وذلك لأنهم يصرون على التساؤل عن السبب الذى منع كوليرج من عدم اتباعها بقصائد مماثلة أو أن يكتب شيئا يضارعها .

وأخيرا لوى كوليرج رقبة إرادته النحيلة بتأثير الأفيون واشتد كابوس العادة عليه ، فأصبح — كما قال هازلت — رجلا يقدر على كل شى إلا ما يمثل واجبا من الواجبات ! وقد تمكن مرة أو مرتين فى (كرستابل) و (قبلاى خان) أن يكتشف أجواء مقدسة ، ولكن إرادته لم تقو على الاستمرار فى التحليق فى مثل هذه الأجواء ، فانتهت قصته كشاعر فى محاولات متكررة غير مجدية لإتمام (كرستابل) . وكل هذا حق صراح ، أو على الأقل يمكن أن يكون مقنعا لأى شخص يحاول أن يستعرض مسألة شذوذ كوليرج

البقية فى العدد القادم

يوسف عبد المسيح ثروت

استجابة لرغبة الطلاب والطالبات

جعلنا ثمن العدد من

الروايـــة

ثلاثة قروش بدلا من خمسة